شُبُهَاتُ القُرْآنِيِّينَ
حَولَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

إعداد

أ. د. محمود بن محمد مزروعة

الأستاذ بكلية الدعوة - قسم العقيدة

جامعة أم القرى - بمكة المكرمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رحمة الله إلى العالمين، وعلى إخوانه وآله وأصحابه والتابعين.

أما بعد:

فقد بعث الله -سبحانه وتعالى- محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وأنزل عليه القرآن الكريم، فختم الله -تعالى- به الرسل، وختم برسالته الرسالات، وختم بكتابه الكتب، وجعله مصدقاً لما بين يديه منها، ومهيمناً عليها.

وقد جاء القرآن المجيد مشتملاً على الدين كله، بعضه مفصل والكثير منه مجمل. وقد وكل الله -تعالى- تبيين الكتاب المجيد، وتفصيله إلى رسوله محمد ﷺ، وجاءت سنة رسول الله ﷺ مبينة لما أبهم ومفصلة لما أجمل. يقول الله -عز وجل-: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

ولما كان الكتاب المجيد بحاجة إلى السنة تبينه وتفصله، فقد كانت السنة من وحي الله -تعالى- إلى نبيه ﷺ حتى يكون المبيِّن والمبيَّن من مصدر واحد، وعلى مستوى واحد، وحاشا الله -تعالى- أن ينزل الكتاب وحياً، ثم يترك بيان ما فيه لبشر بعيداً عن الوحي. فإن المبيِّن له نفس أهمية المبيَّن من حيث هو وسيلة الانتفاع به، وسبيل

العمل بمقتضاه، من ذلك كان القرآن المجيد والسنة النبوية المطهرة يصدران من مشكاة واحدة، مشكاة الوحي الإلهي المعصوم. يقول الله -عز وجل- عن رسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: ٣-٤).

ومنذ جاءت الرسالة الخاتمة وأعداء الله لها بالمرصاد. وقد اتخذت العداوة لله ورسوله ولدينه صوراً مختلفة، وتلبَّست أشكالاً عديدة. ونحن نستطيع أن نجمل هذه الصور والأشكال في نوعين اثنين، الأول: أعداء للإسلام أعلنوا عداءهم في وضوح، ونابذوا المسلمين في جلاء. من أمثال الصليبيين والشيوعيين والعلمانيين وأصناف الملاحدة بعامة، الذين أعلنوا عن إلحادهم، وهؤلاء ضررهم قليل، وخطرهم معروف؛ لأن عداءهم معلن، وكفرهم سافر، فالمسلمون منهم على حذر، ومن كيدهم ومكرهم على ترقب وتوجس. أما النوع الثاني: فهم المنافقون الذين يظهرون غير ما يبطنون، يتدثرون بعباءة الإسلام، ويصطنعون الحرص عليه، والدعوة إليه والعمل على وحدة الأمة، وبينما يعلنون ذلك يسعون إلى تحقيق أغراضهم الخبيثة من القضاء على الإسلام عن طريق التشكيك في مصادره الموحى بها من عند الله -عز وجل- وبخاصة السنة النبوية المطهرة. وذلك بإثارة الشبهات ضد سنة رسول الله ﷺ، والزعم بأنها ليست من الدين، ولاصلة لها بالتشريع الإسلامي، ويزعمون أن القرآن هو المصدر الوحيد للشريعة الإسلامية.

وهذه الدعوى قديمة ، والعداء لرسول الله -ﷺ- ولسنته موروث . لكن الجديد هو هذه الفئة من أعداء الله ورسوله والمسلمين ، منكري سنة رسول الله ﷺ التي بدأت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين الميلادي في بلاد الهند، ثم انتقلت إلى باكستان بعد استقلالها عن الهند، وما تزال. وأعجب أمر هؤلاء أنهم يُنْسَبون إلى القرآن المجيد، فهم يحبون أن يسموا أنفسهم "القرآنيين" نسبة إلى القرآن كتاب الله المجيد ظلماً وزوراً. وقد اختاروا هذه النسبة إيهاماً للناس بأنهم ملتزمون بكتاب الله القرآن. هذا من جانب، ومن جانب آخر يشيرون من طرف خفي إلى أن غيرهم من المسلمين الذين يؤمنون بسنة رسول الله -ﷺ- ويعملون بها ليسوا قرآنيين، وأنهم اشتغلوا بالسنة وتركوا القرآن، -وأيضاً- حتى يجنبوا أنفسهم المؤاخذة، ويقطعوا سبل الاعتراض عليهم، لأنه من ذا الذي يعترض على طائفة أعلنت أنها تنتسب إلى القرآن وتتمسك به ؟.

وليس من المستغرب وجود مثل هذه الطائفة، فأعداء الإسلام كُثُر، ومنكرو السنة مضت بهم القرون جيلاً بعد جيل، وقد أخبر عنهم رسول الله -ﷺ- فعن المقدام بن معديكرب أن رسول الله ﷺ قال: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ماحرم الله"[1] . لكن

---

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب رقم ٦، في لزوم السنة (٥ / ١١) والترمذي في كتاب العلم ، باب رقم ١٠، ما نُهي عنه أن يقال (٥ / ٣٧).

الغريب من هؤلاء هي تلك الشبهات التي أثاروها ضد سنة رسول الله ﷺ، والتي يزعمون أنها أدلة على أن السنة ليست من الدين ، ولا الدين منها، وقد ملأوا بها مؤلفاتهم -وهي في جملتها باللغة الأردية- وندواتهم ومناظراتهم مع الآخرين .. وقد كان لنا حظ من تلك المناظرات على مدى ثلاث جلسات بيننا وبين "البرويزيين" بمدينة "كراتشي "في عام ١٩٨٣م . وذلك في أثناء عملي أستاذاً بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد بباكستان ..

وشبهاتهم هذه المزعومة هي محل الغاية في هذا البحث الموجز الذي عقدناه لمناقشة هذه الشبهات والرد عليها .

نسأل الله -سبحانه- التوفيق والسداد والمعونة والاحتساب ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المبحث الأول: التعريف بالسنة النبوية

أولاً: السنة في اللغة: هي الطريقة، وهي السيرة حميدة كانت أو غير حميدة. ومن ذلك قول الرسول –صلى الله عليه وسلم–: "من سنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة "[1].. وسنة الله –تعالى– في خلقه حكمه –سبحانه– في خلقه، وما عودهم عليه[2]. وذلك كقولهم: سنة الله في خلقه أن يمهل العاصي لعلّه يتوب ويرجع.

ثانياً: السنة في الاصطلاح: يختلف معنى السنة في الاصطلاح حسب تخصص المصطلحين وأهدافهم واهتماماتهم. فهناك المحدِّثون، وهناك الأصوليون، وهناك الفقهاء.

أما علماء الحديث أو المحدِّثون فإنما يبحثون في السنة عن رسول الله –ﷺ– الإمام الهادي، النبي الرسول، الذي أخبرنا ربنا – سبحانه وتعالى – أنه أسوتنا وقدوتنا، ومن ثم فقد نقلوا كل ما يتصل به – ﷺ – من أقوال وأفعال وتقريرات، سواء أثبت ذلك حكماً شرعياً أم لم يثبت. كما نقلوا عنه – عليه الصلاة والسلام – أخباره وشمائله وقصصه وصفاته خَلْقاً وخُلُقاً. وهذا ما التأمت عليه كتب الحديث، وأنتجته مجهودات المحدثين. ومن هنا فقد عرفوا السنة بأنها: "كل ما أثر عن النبي –ﷺ– من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خَلْقية أو خُلُقية، سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها ".

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة وأنواعها ٧/ ١٠٢ .

(٢) المعجم الوسيط ٤٥٦ وغيره من المعاجم.

وأما علماء الأصول، فإنما يبحثون في السنة عن رسول الله -ﷺ- المشرع الذي يضع القواعد، ويوضح الطريق أمام المجتهدين من بعده، ويبين للناس دستور الحياة، فاهتموا من السنة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته التي تستقى منها الأحكام على أفعال العباد من حيث الوجوب والحرمة والإباحة، وغير ذلك .. ولذلك عرفوا السنة بأنها: "ما نقل عن النبي -ﷺ- من قول أو فعل أو تقرير". مثال القول قوله -عليه الصلاة والسلام-: "إنما الأعمال بالنيات"(١). ومثال الفعل ما نقل إلينا من فعله -صلى الله عليه وسلم- في الصلوات من وقتها وهيئتها ومناسك الحج وغير ذلك. ومثال التقرير إقراره -عليه الصلاة والسلام- لاجتهاد الصحابة في أمر صلاة العصر في غزوة بني قريظة حيث قال لهم: "لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة"(٢)، ففهم بعضهم النهي على ظاهره فأخَّر الصلاة فلم يصلِّها حتى فات وقتها، وفهم بعضهم أن المقصود حث الصحابة على الإسراع، فصلوها في وقتها قبل الوصول إلى بني قريظة. وبلغ النبي -صلى الله عليه وسلم- ما فعل الفريقان فأقرهما جميعا(٣).

---

(١) رواه البخاري، كيف كان بدء الوحي، ١/ ٣٢، مكتبة الكليات الأزهرية ط ١٣٩٨هـ.

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، ١٥/ ٢٩٤ برقم ٤١١٩ .

(٣) السنة ومكانتها من التشريع، د. مصطفى السباعي: ٤٧، السنة قبل التدوين. د.عجاج الخطيب: ١٦ .

وأما علماء الفقه فيبحثون في السنة عن رسول الله – ﷺ – الذي لا تخرج أقواله وأفعاله عن الدلالة على حكم من الأحكام الشرعية. ومن هنا كانت السنة عندهم هي: "ما أمر به النبي – ﷺ – أمراً غير جازم". أو "ما ثبت عن النبي – ﷺ – من غير افتراض ولا وجوب". أو "ما في فعله ثواب، وفي تركه ملامة وعتاب لا عقاب". وهي تقابل الواجب وغيره من الأحكام الخمسة لدى الفقهاء .. وقد تطلق السنة عندهم على ما يقابل البدعة، فيقال: فلان على سنة، إذا كان يعمل على وفق ما كان عليه النبي – ﷺ – ويقال: فلان على بدعة، إذا عمل على خلاف ذلك. ويطلق لفظ السنة عندهم – كذلك – على ما عمل عليه الصحابة – رضوان الله عليهم – وجد ذلك في القرآن المجيد أو لم يوجد، لكونه اتباعاً لسنة ثبتت عندهم، لم تنقل إلينا، أو اجتهاداً مجتمعاً عليه منهم أو من خلفائهم لقوله – ﷺ –: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ"[1][2].

هذه معاني السنة، أو تعريفاتها والمراد بها في مصطلح العلماء، وقد

---

(١) رواه أبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة ٢ / ٣٥٩ برقم ٤٥٨٣، وأحمد ٤ / ١٢٦، والترمذي كتاب العلم باب رقم ١٦، وابن ماجه في المقدمة باب رقم ٦، والدارمي في المقدمة باب ١٦ .

(٢) إرشاد الفحول: ٣١، والموافقات: ٣ / ٤، تدوين السنة. د. محمد مطر الزهراني: ١٧، والسنة ومكانتها من التشريع: ٤٩ .

تبين لنا أن علماء كل فن أو علم من العلوم لهم اهتمام وعمل في السنة يتناسب مع اهتمامهم، ويحقق ما يهدفون إليه في علومهم، دون أن تتعارض هذه العلوم، فالحق أنها كلها في خدمة السنة النبوية وتيسير التعرف عليها والعمل بها، ومن أشرف أهداف القائمين على هذه العلوم هو جمع السنة النبوية وتمحيصها، وتنقيتها مما قد يكون دخيلاً عليها، ثم الدفاع عنها ضد الشاغبين عليها، المعارضين لها، الساعين إلى طرحها والاقتصار في التشريع الإسلامي على مصدر واحد هو القرآن العظيم.

وإذا كنا قد أشرنا إلى عدد من تعريفات العلماء للسنة النبوية الشريفة، فإن التعريف الذي يتوافق مع بحثنا هذا إنما هو تعريف الأصوليين تحديداً؛ لأنهم الذين يعنون -بالدرجة الأولى- ببيان حجية السنة، ومكانتها من التشريع، وسوق الأدلة على ذلك، وإن كان المحدثون والفقهاء لم يحرموا أجر البحث في هذه الجوانب، ولم يقصروا في بذل المجهود في سبيلها.

المبحث الثاني: مكانة السنة النبوية من التشريع وأدلة حجيتها

أولاً: مكانة السنة النبوية الشريفة من التشريع:

إن السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي. وهذه حقيقة لا يعارضها أو يشغب عليها إلا شقيٌّ معادٍ لله ولرسوله وللمؤمنين، مخالف لما أجمعت عليه الأمة سلفاً وخلفاً وحتى قيام الساعة – بحول الله تعالى.

ذلكم أن المقرر لدى الأمة المسلمة أن الوحي المنزل على الرسول –ﷺ– من قبل الله –سبحانه– نوعان، الأول: هو القرآن العظيم، كلام الله سبحانه المنزل على رسوله –ﷺ– بلفظه ومعناه، غير مخلوق، المتعبد بتلاوته، المعجز للخلق، المتحدى بأقصر سورة منه، المحفوظ من الله –تعالى– أن يناله التحريف، المجموع بين دفتي المصحف الشريف .. أما النوع الثاني من الوحي: فهو السنة النبوية المطهرة بأقسامها القولية والفعلية والتقريرية، وسنة رسول الله –ﷺ– هي من وحي الله –عز وجل– إلى رسوله –ﷺ– باتفاق الأمة المسلمة، وذلك لما قام الدليل من كتاب الله –تعالى– على ذلك في آيات كثيرة، ثم لما صرحت به السنة النبوية، ثم لما أجمع عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم إلى يوم الدين – بحول الله تعالى.

وإذا كان الشاغبون على سنة رسول الله –ﷺ– يزعمون أنهم

يستمسكون بالقرآن المجيد مكتفين به عن السنة ؛ فلنذكر بعض ما جاء به القرآن الكريم من الآيات البينات التي تشهد وتصرح بأن السنة وحي من عند الله – سبحانه – إلى رسوله –ﷺ– ثم الآيات التي تصرح بوجوب طاعته – صلى الله عليه وسلم – ووجوب حبه، ووجوب اتباعه، ووجوب الاحتكام إليه والتسليم له في كل ما يحكم به، لنا كان الحكم أو علينا، إلى غير ذلك.

فمن الآيات القرآنية التي تدل على أن السنة وحي قول الله – عز وجل–: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (النجم: ٣ – ٤) وهذه الآية نص قاطع في أن الرسول –ﷺ– لا يأتي بشيء من عنده، وأن كل ما ينطق به في مجال التشريع إنما هو وحيٌ من عند الله – تعالى –، سواء كان وحياً من النوع الأول وهو القرآن، أو من النوع الثاني وهو السنة النبوية.

ومن ذلك – أيضاً – قوله – تبارك وتعالى – ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤). وهذه الآية الكريمة لعلها استجابة من الله – تعالى – للدعاء الذي توجه به إبراهيم وإسماعيل – على نبينا وعليهما الصلاة والسلام – إليه – تعالى – حين كانا يرفعان القواعد من البيت.

وهذا الدعاء ذكره الله في القرآن الكريم في قوله –سبحانه وتعالى–:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٧ - ١٢٩).

فهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل - على نبينا وعليهما الصلاة والسلام - لقي القبول عند الله - سبحانه - فكان من قدره - عز وجل - أن جعل من ذريتهما تلك الأمة المسلمة التي هي خير أمة أخرجت للناس، ثم بعث فيها رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وقد ذهب أهل العلم والتحقيق إلى أن المراد بالحكمة إنما هو السنّة النبوية، فإن الله - تعالى - قد مَنَّ على المؤمنين بإرسال الرسول -ﷺ- الذي جعل رأس رسالته أن يعلم أمته المؤمنة شيئين: الكتاب والحكمة. ولا يجوز أن تكون الحكمة هي الكتاب، فإنها معطوفة عليه، والعطف يقتضي المغايرة، ولا يجوز أن تكون شيئاً آخر غير السنة، فإنها عطفت على الكتاب، فهي من جنسه في المصدر والغاية. وقد منَّ الله -تعالى- بهما على المؤمنين، ولا يمنّ الله - تعالى - إلا بما هو حق وصدق، فالحكمة حق كما أن القرآن حق. وهذه الآية واضحة الدلالة على أن السنة من وحي الله - تعالى - على نبيه -ﷺ-.

يقول الشافعي -رحمه الله تعالى-: "فذكر الله الكتاب وهو

القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت مَن أرضى مِن أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهذا يشبه ما قال – والله أعلم – لأن القرآن ذُكر، وأُتْبِعَتْه الحكمة، وذكر الله منَّه على الخلق بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز – والله أعلم – أن يقال الحكمة هنا إلا سنّة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وذلك أنها مقرونة بالكتاب، وأن الله افترض طاعة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وحتم على الناس اتباع أمره، فلا يجوز أن يقال لقول فرض إلا لكتاب الله – تعالى – وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم ....."[1].

ومن الآيات التي تقطع بأن السنة وحي من عند الله – تعالى – وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا ينطق فيما يتصل بالتشريع إلا بما يوحي الله – تعالى – إليه، قوله – سبحانه – في شأن رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤–٤٧).

فهذه الآيات تدل بوضوح شديد على أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا يقول شيئاً، فيما يتصل بالدين، إلا بما يوحي إليه الله به، وكذلك لا يفعل، فإن القول أعم من الفعل ودليله. ولو أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال شيئاً في الدين لم يوح الله – تعالى – به إليه، لأهلكه الله – تعالى – وما من أحد بقادر على أن يمنع الله

---

(١) الرسالة: ٧٨. وراجع في ذلك السنة ومكانتها من التشريع. د. مصطفى السباعي: ٥٠.

– سبحانه – من إهلاكه آنئذ، وهذا وعيد من الله – تعالى – ووعد، وعيد لنبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يتقول عليه ما لم يوح به إليه – وحاشاه – صلى الله عليه وسلم – أن يفعل ذلك، ووعد للمؤمنين بأنه – تعالى – حافظٌ دينَه من أن يدخل إليه أو يختلط به ما ليس منه على لسان نبيه، وهذه الآيات تعد – في الوقت ذاته – أمراً من الله – تعالى – جازماً لأمته أن يؤمنوا ويوقنوا ويسلموا لكل ما يأتيهم به النبي – صلى الله عليه وسلم – حيث إن الله – عز وجل– ضمن لهم أن نبيه لن يتقوَّل عليهم، وأن كل ما ينطق به النبي –صلى الله عليه وسلم– قولاً، أو يأتيه فعلاً إنما هو من وحي الله – تعالى – إليه. يقول العلماء : لقد أخبر الله – عز وجل – بأن رسوله – صلى الله عليه وسلم – لو تقوَّل في الدين قولاً لم يوح – الله تعالى – به إليه لأهلكه الله – سبحانه – وحيث إن الله – تعالى – لم يهلك نبيه، فلم يأخذ منه باليمين، ولم يقطع منه الوتين – نياط القلب – بل سانده وأعانه، وأيده ونصره، وأظهره على أعدائه هو وأصحابه الذين آمنوا به واتبعوه، فإن ذلك دليل قاطع على أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يقل أو يفعل أو يقر شيئاً إلا بوحي من الله سبحانه وتعالى[1].

ومن الآيات التي تدل على أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا يقول أو يفعل شيئاً في الدين إلا بوحي من عند الله – عز وجل – قول الله

---

(١) يرجع في تفسير هذه الآيات إلى التفاسير المعروفة وبخاصة: الزمخشري، والرازي، والقرطبي.

– سبحانه – مخبراً عن رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

فالآية أسندت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحلال الحلال، وتحريم الحرام إليه – صلى الله عليه وسلم – مباشرة دون أن تقيد ذلك بكونه قرآناً أو سنة، والإطلاق العام هنا يشمل جميع ما يحله ويحرمه – صلى الله عليه وسلم – أعم من أن يكون ذلك بالقرآن أو بالسنة، فبان من ذلك أن ما يحل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وما يحرم بسنته هو مثل ما يحرم بقرآن الله – تعالى – كلاهما وحي من عند الله سبحانه.

ومن الآيات التي تدل على أن السنة وحي من عند الله – سبحانه – وتنص على أن ما يحرم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بسنته مثل ما يحرم بالكتاب المجيد، كلاهما من عند الله – تعالى – قول الله –عز وجل–: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ (التوبة: ٢٩). فهذه الآية الكريمة ذكرت نوعين من المحرمات: ما حرم الله – تعالى– وما حرم رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وجمعت بين الأمرين في جملة واحدة عاطفة

ما حرم رسول الله على ما حرم الله، وذلك يدل بوضوح على أمرين، الأول : أن ما حرم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو مثل ما حرم الله، وأن الأمرين على منزلة واحدة من حجية التشريع وحكمه، وأن ما شرع الله – تعالى – في كتابه هو مثل ما شرع رسول الله – صلى الله عليه وسلم– في سنته.. الثاني : أن ما حرم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في سنته هو وحي من عند الله – تعالى – كمثل ما حرم الله – تعالى – في كتابه، فكلا التشريعين وحي من عند الله سبحانه.

ولعل ما ذكرناه كاف في بيان ما قصدنا إليه من الاستدلال بآيات القرآن المجيد على أن السنة وحي من عند الله – تعالى – كما أن القرآن وحي، وأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا ينطق عن الهوى. ومن ثم ننتقل إلى ما يترتب على أن السنة وحي من عند الله –تعالى، نقصد الآيات القرآنية التي توجب وتأمر بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتجعل طاعته – صلى الله عليه وسلم – فيما يأمر وما ينهى فيصلاً بين الإيمان والكفر، والنجاة والهلاك. قد قلنا إن ذلك مرتب على ما سبق بيانه في الفقرة السابقة من أن السنة وحي من عند الله – تعالى – إذ لو لم تكن كذلك، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ينطق عن الهوى – حاشاه – لما أمرنا الله – تعالى – باتباعه وطاعته في كل ما يأمر وما ينهى، كما سيتبين لنا من الآيات الدالة على ذلك – بحول الله تعالى –.

وإن الناظر في كتاب الله المجيد يراه قد أمر بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في آيات كثيرة وبصيغ متنوعة عديدة.

من هذه الآيات الآمرة بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما هو قاعدة عامة في رسل الله أجمعين، وخاتمهم محمد – صلوات الله على نبينا وعليهم – وذلك قول الله – عز وجل –: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ... ﴾ (النساء: ٦٤).

فثمرة إرسال الرسل – صلوات الله عليهم أجمعين – إنما تنحصر في أن يطاعوا، وطاعتهم إنما هي بإذن الله سبحانه وأمره، فالشاغب عليهم، التارك لسنتهم، الرافض لأوامرهم ونواهيهم، إنما هو محارب لله – سبحانه – ناقض لإذنه، فاسق عن أمره.

ومن ذلك ما هو قاعدة لرسولنا – صلى الله عليه وسلم – شاملة لكل ما يأخذ وما يدع، وما يأمر وما ينهى.

وذلك قول الله –عز وجل–: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (الحشر: ٧).

فهذه الآية تأمر المؤمنين بأن يأخذوا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كل ما يأتيهم به، يستوي في ذلك ما كان قرآناً أو سنة، وكذلك أن ينتهوا عن كل ما نهاهم عنه، ثم توعدت المخالفين لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالعقاب الشديد.

ومن الآيات الآمرة بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما جاء فيها الأمر بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مقروناً بطاعة الله – سبحانه – مع تكرار فعل "أطيعوا" . ومن ذلك قول الله – عز وجل – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد : ٣٣) .

ومن ذلك ما جاء فيه الأمر بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مقروناً بطاعة الله – تعالى – دون تكرار الفعل " أطيعوا " مما يدل بشكل قاطع على أن طاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هي من طاعة الله – سبحانه –، وأنه لا يحل التفريق بين طاعة الله – تعالى – وطاعة رسوله –صلى الله عليه وسلم– ومن ذلك قول الله – سبحانه– : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٣٢) . وواضح من النص الكريم أن الذي يتولى عن طاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو من الكافرين.

ومن الآيات الآمرة بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما جاء فيه الأمر بطاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ابتداء، دون أن يسبقه الأمر بطاعة الله – سبحانه –، وذلك يبين أن طاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – هي في الوقت نفسه طاعة لله – تعالى – وأن طاعة الرسول وحدها مقياس لطاعة الله – عز وجل – ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النور : ٥٦) .

ومن علامات طاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واتباعه الأخذ عنه، والاحتكام إليه، وتحكيمه في كل ما يعرض لنا من شؤون الحياة، ثم الرضا بما يحكم به، والإذعان والتسليم له – صلى الله عليه وسلم – وقد جعل الله – سبحانه – ذلك من علامات الإيمان، وجعل نفي ذلك وعدم الاتصاف به من علامات الخلو من الإيمان، أي علامات الكفر، يقول الله –عز وجل–: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥).

ولأن الاحتكام إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والرضا والإذعان والتسليم له بكل ما يأمر به أو ينهى من علامات الإيمان ؛ فقد كان رفض ذلك والإعراض عنه من علامات النفاق والكفر، مهما قال أولئك المعرضون أو زعموا أنهم مؤمنون. يقول الله –عز وجل– حكاية عن بعض هؤلاء: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (النور: ٤٧–٥٢). فهذه الآيات الكريمة تتكلم على موقف المنافقين من الاحتكام إلى الله ورسوله، وتكشف عن زيف ما يزعمون من الإيمان بالله ورسوله، وأن